الأدب الاغريقي
في عصر الاسكندرية
للدكتور محمد مندور

رأينا أن شعر الإسكندرية لا يهز النفوس إلا عندما يعود فيتصل بالحياة ، ولقد شهدنا ذلك الاتصال فى المقطوعات الصغيرة وفى أغانى الريف والرعاة . وبإنعام النظر فيما سقنا من أمثلة ، يلاحظ القارئ بلا ريب أن ذلك الشعر وإن كان نقياً خالصاً فإنه لم يخل من واقعية ، وذلك لا فى الأسلوب فحسب ، بل وفي نوع الإحساس والتفكير . ولقد استمعنا إلى تيوقريطس ينصت إلى الضفدعة الخضراء ، ويتغنى بمعبيكا الباسمة الخفيفة الدم ، وقد جن بها عادياً خلفها كما يعدو الذئب وراء النعجة والبجع خلف المحراث ، وعنده أن جالاتيه ، البيضاء كاللبن المخيض ، لاذعة كعنقود العنب الأخضر .

وهـذه الواقعية لا علاقة لها بالمذهب الأدبى الذى ظهر خلال القرن التاسع عشر بذلك الاسم ، فأدباء ذلك القرن وعلى رأسهم بلزاك وفلوبير وموباسان إنما كانوا يقصدون بالواقعية الكشف عن الجوانب الوضيعة فى النفس البشرية ، حتى لقد تطور مذهبهم فانتهى إلى الطبيعية التى نجدها عند زولا حيث لا نرى إلا الغرائز الشاذة والقوى العضوية ومخلفات الوراثة المثقلة تقود أبطال الروايات . واقعية شعراء الإسكندرية لا غوص فيها ولا تحليل ولا التماس للجوانب المظلمة فى النفس ، وإنما هى تصوير لواقع الحياة الساذجة ، ولشعور النفس المفطور بأسلوب مباشر

وإذا كانت هذه الواقعية قد طالعتنا من ثنايا الأغانى ، فإنه لم يكن بد من أن تنفرد بنوع بذاته من أنواع الأدب ، وهذا النوع هو ما سميناه فصول المحاكاة Mimes

فصول المحاكاة

نشأ هـذا الفن بصقلية كما نشأت أشعار الرعاة ، وإن يكن أقدم منها تاريخاً ، إذ يعتبره النقاد عنصراً من العناصر التى مهدت للكوميديا ، وأكبر الظن أنه نشأ فى القرن الخامس ق . م . على يد سُفرون وزينارخوس ، وإن يكن ما كتباه قد ضاع . ولهذا لا نستطيع أن نجزم بطريقة بنائهما لتلك الفصول ، وإن كان من الراجح أنها كانت على غرار ما وصلنا من اللاحقين لها ، وبخاصة هيروندس (يسميه البعض هيروداس) الذى نشر له العالم الإنجليزى كنيون Kenyon سنة ١٨٩١ سبعة فصول عن ورقة من أوراق البردى موجودة بالمتحف البريطانى . وكل فصل منها عبارة عن حوار بين شخصين أو ثلاثة أشخاص أحياناً من النساء وأحياناً من الرجال ، وهو شديد الشبه بفصل من مسرحية ، وإن كانت تلك الفصول لم تعد للتمثيل ، بل كتبت للقراءة أو الإلقاء . ولقد كان هيروندس هذا فيما يبدو معاصراً لتيوقريطس . وأشخاص الحوار من عامة الشعب أو من الطبقة الوسطى . فتجد معلم المدرسة وبائع الرقيق والقوادة والجزمجى الشهير ... الخ ... والشاعر يصورهم فى حياتهم اليومية ، وهو يلتمس لحواره أى سبب كان : لقاء فى طريق ، أو احتكاكا فى زحام ، أو مساومة على سلعة . وإذا بنا نشهد ساعة من حياتهم بهمومها الدارجة ، ومسراتها المألوفة ، وشهواتها الصغيرة ، وثرثرتها الأبدية التى نعرفها جميعاً فى أفراد الشعب ، وما يتخلل حديثهم من أمثال وتحيات محفوظة ، وشتائم موروثة ومصطلحات لا نفهم لها وضعاً ولا معنى . من أمثال : « بلا آفية » و « ياسيدى لا إنت » ، وما إلى ذلك مما يستطيع أن يسمعه القارئ بكل ركن من أركان الحسينية أو البغالة ، فنستمع طوراً بعد طور إلى القوادة ذات الثوب الأزرق تنقل إلى فتاة مغريات عربيد كبير ، أو بائع الرقيق يقص على المحكمة محنه ويطلب إليها العدل ، أو أب يتحدث إلى معلم المدرسة عن ولده « الشيطان الرجيم » ويقص عليه « عفرتته » التى لا تنتهي ؛ أو نرى بائع الأحذية الشهير يعرض على « مترو » أحذيته الجيدة ويطرى البضاعة

فصول المحاكاة لوحات أخلاقية صغيرة ، لوحات لا عمق فيها ولكنها تصوير صادق للحياة ، وهى وإن خلت من عنصر الدراما إلا أنها مع ذلك تكوّن غالباً وحدة لها بدؤها ونهايتها . وموضع الجمال فيها هو سذاجتها وما بها من دقة الملاحظة ، ثم

بقاؤها فى مستوى الشعب ، فلن تجد فيها أى تداخل من كاتبها . باحساسه الخاص أو آرائه ومثله ، فكأن الشاعر سلبي بحت يستمع إلى من حوله ويرصد ما يستمع ، ومع ذلك كم فيها من دقة وصدق وحسن اختيار للتفاصيل الدالة ، وقد تتابعت بها دعارة القول وعفة الحياء ، وقاحة بائع الرقيق وسذاجة نساء الحارات ، مكر بائع الأحذية وتصنع المستهترات

فى هذه الفصول مجموعة كاملة من الشاعر المتوسطة التى نجدها عند عامة الناس ، والشاعر لا يحيد بها إلى التزمت ولا إلى التسامح المسرف ، بل يلازم الصدق فهو لا يمتدحها ولا يهجوها بل يصورها كما هى غير متجنب ما فيها من قبح ولا مبالغ فيه . وهو لا يخشى العبارة المسفة ولكنه لا يبحث عنها ، كما أنه لا يفدق العطف على ما يحب ولا يصب اللوم على ما يكره . وشخصياته وإن لم تخل من رذائل وقسوة إلا أن تصرفاتهم لا تصل قط إلى حد المآسى الدراميتيكية . وهم بهذا أيضاً يظلون فى واقع الحياة . الحياة الحقيقية التى يندر بها الأبطال الخارقون كما يندر كبار المجرمين

ثم إن هذه الفصول وإن كانت تصور نواحي إنسانية عامة إلا أنها تضيف إلى ذلك حقائق تاريخية خاصة بشعب صقلية فى ذلك الحين ، ذلك الشعب الذى اشتهر منذ القدم بكثرة الحركة وخفة اللسان ومرونة الخلق والنزوع إلى الاستطلاع

ولقد كتب تيوقريطس نفسه كما ذكرنا فى نهاية المقال السابق بعضاً من تلك الفصول ، ولعل « نساء سيراقوزة » خير مثل يضرب لها . والحوار يجرى بمدينة الإسكندرية فى يوم من أيام عيد أدونيس وبطلاه امرأتان أتت بهما من سيراقوزة إلى الإسكندرية بعض المهام التجارية فذهبتا إلى العيد حيث لا تنقضي تعليقاتهما على ما يريان ، فالحصان الرمادى الضخم يخيفهما وكل منهما تشكو من زوجها وإن كانتا فى حقيقة الأمر أميل إلى الطيبة ، وهما لا يغنيان ولكنهما يحبان الاستماع إلى الغناء ، وبالفعل ينشد أحد المغنين نشيداً جميلاً لأدونيس وبه ينتهى الفصل . وها نحن بعيدون عن رعاة الجبال وقد انتقلنا إلى المدن حيث تجرى الحياة المتواضعة التى لا شعر فيها ، ولكننا نجد فى صدق التصوير وسذاجته ما يعوض عن الشعر ، وإن كان تيوقريطس لم يتمالك من أن يختم فصله بنشيد فيه شذا الشعر الجميل

الشعر العلمى « الأوكاريمى »

قلنا من قبل إن الكثير من شعر الإسكندرية كان شعراً مصنوعاً وضعه العلماء بعيداً عن الحياة ، ولدينا من هذا النوع الشيء الكثير ، فأراتوس يتحدث عن « ظواهر الطبيعة » فى كتاب ضخم . وكاليماكوس يقص نسب الآلهة بغامراتهم وحوادثهم المعروفة فى أسلوب تعليمى فى « أناشيده » أو يوضح الأسباب والمسببات فى « أصوله » ، بل ومنهم من أخذ في محاكاة هوميروس فحاول أن يضع الملاحم . وأكبر هؤلاء المقلدين هو أبولونيوس الرودسى الذى ألف ملحمة كبيرة يقص فيها رحلة جازون ورفاقه بحثاً عن الجزة الذهبية ، ذلك أن جازون هذا كان عمه قد اغتصب من أبيه العرش ؛ وعندما حاول استرداده طلب إليه العم أن يأتيه أولاً بالجزة الذهبية ، وكانت تلك الجزة ببلاد تراقيا النائية حيث يحرسها تنين ضخم فضلاً عما فى تلك الرحلة البعيدة من مخاطر . ولقد استطاع جازون أن يأتى بالجزة ، وذلك بفضل ميديه بنت ملك تراقيا التى أحبت البطل وجذبته بنصائحها وذكائها مواضع التهلكة بل وهربت معه . وهذه هى القصة المعروفة بقصة « الأرجونوت » أى بحارة « أرجو » وهو إسم السفينة التى أبحر عليها جازون ورفاقه

وأبولونيوس وإن يكن بلا ريب من الشعراء العلماء ، شعراء الصنعة . فإنه يعد برغم ذلك شاعراً كبيراً وبخاصة فى بعض أجزاء ملحمته التى استرسل فيها مع إحساسه إلى حد ما . ولعل من خير ما كتب وصفه لفرام ميديه : « مدّ الليل ظلاله على الأرض ، وفى البحر نام البحارة بسفنهم وهم يتأملون هيليكيه Heleké ونجوم الأريون . وقد هفا المسافرون فى الطريق إلى ساعة النوم ، كما هفا الحراس على الأبواب . بل والأم الحديثة عهد بموت أبنائها قد لفها خدر نوم عميق . وعواء الكلاب لم يعد يسمع بالمدينة . لم يعد ثمة همس لصوت . لقد تملك الصمت ظلام الليل

ولكن ميديه لم يغزها عذب النوم ، لقد أيقظتها آلاف من الهموم ، هموم غرامها ... وكان قلبها يثب فى صدرها بلا انقطاع ، وكأنه شعاع يثب فى غرفة وقد عكسته مياه تصب فى قدر . فهو يهتز دائراً فى سرعة فيقفز هنا وهناك . على هـذا النحو كان يدور قلب الفتاة بصدرها

حدثت نفسها حيناً بأنها ستعطى المادة السحرية الثيران « التى كانت ستفترس جازون » لتهدئها ، وحيناً بأنها لن تعطيها . فكرت فى أن تموت ، ثم فى أن لا تموت ، وأن لا تعطى المادة السحرية محتملة ألمها دون أن تفعل شيئاً . وأخيراً جلست وفكرت ، ثم قالت : ما أشقانى ! لقد تحوطتنى المحن . أين المفر ؟ بكل سبيل شكوك لنفسى ! لا دواء لألمى الذى لا يمسك عن إحراقى . آه ! ليت أرتميس « إلهة الصيد » استطاعت أن تقتلنى بسهامها قبل أن أراه . كيف أستطيع أن أعد المواد السحرية خفية عن أهلى ؟ ماذا أقول ؟ أى حيلة أخترع لأدارى معونتى ؟ هل أحادثه سراً بعيداً عن رفاقه ؟ يا للبؤس ! إن موته ذاته لن يذع لى أملاً فى الشفاء من آلامى . بعد موته سيحتضننى الألم . وداعاً عفافى ! وداعاً ضياء حياتى ! فليمنج على يدى ولينأ من هنا دون جراح . لينأ إلى حيث يهوى فؤاده »

ولست أدرى ماذا يظن القارىء بهذه الفقرة التى هى بلا ريب من خير ما كتب وإن كنت عن نفسى أحس فيها الصنعة بادية والتكلف واضحاً ، ولا أدل على ذلك من أن ننعم النظر فى تشبيهه المعقد لقلب الفتاة بالشعاع الذى يثب فى غرفة وفى الغرفة قدر وبالقدر يصب ماء ، والماء يعكس الشعاع ، والشعاع يتطاير شرره فى كل ناحية وما إلى ذلك من تفيهق العلماء وصنعتهم المرذولة

ذلك عن فن الملاحم . ولقد سبق أيضاً أن قلنا إن شعراء ذلك العصر قد حاولوا كافة الفنون الأدبيـة ، فهم لم يقفوا عند الملاحم يحاولون بعثها بعد أن كان زمن الفطرة والطبع السليم قد انقضى ، بل كتبوا أيضاً التراچيديات . ومن غريب الأمر أنه أكبر شعراء التراچيديات فى ذلك العصر وهو ليكوفون Lycophon لم يرقه ما أحدثه أوريپيدس فى أسلوب التراچيديا من تطور نحو النثرية . فأراد « كاديب مرهف » أن يعود بها إلى اللغة الشعرية القديمة . فأخذ يحاكى أيسكيلوس وپنداروس ، ولكن التكلف أفسد محاولته كما نتوقع ، وكان فى هذا فشل للتراچيديا لا يقل عن فشل الملاحم

ونخلص من كل ما سبق عن أدب عصر الإسكندرية إلى أن لم يجد إلا عند ما عاد إلى الحياة ، لقد جاد فى شعر ليونيداس لأنه لامس بؤس الحياة وخبر أسرارها ، وجاد فى شعر تيوقريطس لأنه هاجر إلى الريف حيث السذاجة الساحرة ، وجاد فى فصول المحاكاة ، لأنه صور واقع الحياة ، ولقد صدقت نغماته فى شعر الغرام ، لأن الحب شعور غلاب ، وأما فيما عدا ذلك فقد جاء شعر علم وتكلف وكتب وصالونات .

« انتهى »

محمد عبد الله عنان

الشـــوامخ

امرؤ القيس

درس وتحليل

بقلم

الدكتور محمد صبرى

أول كتاب يبرز عبقرية زعيم الشعر الجاهلى بأسلوب جديد يستند إلى التحليل المقارن بأدب الإفرنج

يطلب من المكاتب الشهيرة الثمن ٣٠ قرشا